مخطوطات ومطبوعات

ظهر الاسلام [1]

تأليف الأستاذ احمد امين

يقع هذا الكتاب في ثلاث واربعين وثلاث مئة صفحة ، من القطع الكبير ، حسن الطبع والترتيب والتبويب ، وهو « يبحث في الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل الى آخر القرن الرابع الهجري » .

بدأ المؤلف كتابه بوصف المملكة الاسلامية في ذلك العهد ، فذكر كيف دخل العنصر التركي في هذه المملكة ، وما كان له من أثر في الحياة السياسية والاجتماعية ، ثم ما كان بعد ذلك من نزاع — كان من قبل بين الفرس والعرب — فأصبح بين العرب والفرس والترك ، يقول : « وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاعهم مع الفرس ، فجاءت قوة الترك ضغثاً على ابالة ، وأخذ التاريخ الاسلامي يصطبغ بالصبغة التركية ، وتحركت العصبية ضد الأتراك ، حتى ان المعتصم وهو الذي جلبهم ، اخذ — على ما قيل — ينكر أمرهم ، وجعل المحدثون يضعون الأحاديث في ذم الترك ، تعبيراً عن شعورهم وشعور الناس .

ثم جاء المتوكل — وقد مضى على مجيء الترك اثنتا عشرة سنة ، تمكنوا فيها من الأرض ، وعرفوا الناس والبلاد ، وخدمتهم الحوادث في اعلان سلطانهم — فاذا باتياخ وهو غلام تركي كان طباخاً ، يصبح صاحب السلطان ، وبيده معظم الأمور ، واصبحت امور الدولة في يد الأتراك ، واصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ؛ وهم انفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض ، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس ، وتعصب كل فريق لقائد منهم ؛ وهم

(١) تأخر نقد هذا الكتاب لأسباب قاهرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيرو الطمع في الأموال لا يشبعون . وعلى الجملة فقد أصبحت دار السلام وما حولها ، ليست دار سلام »

يقول : « ورأى المتوكل ان يتخلص من الأتراك ، ويعيد الدولة سيرتها الاولى . ولكن ابنه المنتصر كان يشايعهم . فعزم المتوكل ان يفتكَ بابنه المنتصر ، ويقتل وصيفاً وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ، وعزموا هم على الفتك به . فكان ذلك مفترق الطرق : ان نجح زالت دولة الاتراك وعادت غلبة الفرس ، ورجعت الأمور الى ما كانت عليه . ولكن شاء القدر ان ينجحوا هم ، فتقدم باغر التركي حارس المتوكل ينفذ مؤامرة دبّرها القواد الأتراك ، وعلى رأسهم بغا الصغير ؛ ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، وهم متلثمون والسيوف في أيديهم ، وصعدوا على سرير الملك ؛ وضرب باغر المتوكل بالسيف فقده الى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ، وفعل به مثل ذلك . وأقبل وزيره الفتح بن خاقان يمانعهم ، فبعجه واحد منهم بالسيف في بطنه ، فأخرجه من متنه .

ولم يكن قتل المتوكل اعتداء على المتوكل وحده ، بل هو قتل لسلطان كل خليفة بعده . ولم يكن قتله بيد باغر وحده ، بل بيد الأتراك . وكان في قتله حياة الأتراك وسلطانهم ، وانذار عام للبيت المالك : أن من أراد ان يلي الخلافة ، فليذعن اذعاناً تاماً للأتراك ؛ ومن حدثته نفسه — من الخليفة فمن دونه — ان يناوئهم فليوطن نفسه على القتل .

وهكذا كانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ، ومجد الأتراك ، فكان الخليفة بعده خاتماً في اصبعهم او أقل من ذلك ، حتى قنع بالسكة والخطبة . وصار يضرب ذلك مثلاً لمن له ظاهر الأمر وليس له من باطنه شيء ... »

هذه هي الصورة البارعة من حيث التصوير ، المؤلمة من حيث الواقع ، التي استهل بها الأستاذ فصله الأول : وصف الحال التي كان عليها سكان المملكة الاسلامية في القرنين : الثالث والرابع . وقد عزّز هذه الصورة ببسط الأحداث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والخروق التي كان يحدثها هؤلاء الأتراك — ثم الديلم من بعدهم — في أطراف البلاد وفي قلبها من نهب وسلب ، وانتهاك حرمات ، وضبط أموال ، واذلال الخلفاء وتقتيلهم ؛ حتى الزنج نفسهم لم يخلص العرب وبلادهم من شرهم . هذا الى ما كان بين السنة والشيعة من جدال وقتال ، وما بين العناصر المذهبية من خلاف .

يقول الأستاذ : « هذه العناصر الجنسية من اتراك وفرس وعرب وروم وزنج وغيرهم ، وما تستلزم من عصبيات ؛ وهذه العصبيات المذهبية والطائفية من تسنن وتشيع ، ومن حنابلة وشافعية وحنفية ، ومن مسلمين ويهود ونصارى وغير ذلك ؛ كانت كلها حركات تموج بها المملكة الاسلامية ، تتعاون حيناً ، وتتقاعس حيناً ؛ وتؤثر في السياسة وفي الدين وفي العلم ؛ وتنشأ عنها المؤامرات السرية أحياناً ، والقتال الصريح احياناً . وكان لها كلها اثر واضح في كل ناحية من النواحي الاجتماعية : قد أثرت في الحالة المالية ، اما مباشرة وإما عن طريق الحكم والسياسة ، فعمرت في ناحية وخربت في اخرى ، وعدلت في ناحية وظلمت في اخرى » .

ثم هو يصف ما كانت عليه الخاصة من غنى وترف ، وما كانت عليه العامة من فقر وبؤس ، وأسباب ذلك ، وما كان من نتائجه المفجعة من ثورات وخراب .

وينتقل المؤلف من وصف الحياة الاجتماعية السياسية الى وصف الحياة العقلية ، وما كان من اضعاف سلطان المعتزلة ، واعلاء شأن المحدثين ، ونصرة اهل السنة ، ثم يتحدث عما كان من حضارة وعلم وأدب ؛ ومن نبغ في الآداب والعلوم العربية من غير العرب ، كالفرس جملة ، ومن لم ينبغ كالترك الا افراداً ؛ ومراكز هذه الحياة العقلية من لغوية ونحوية وفلسفية ودينية وأدبية وعلمية ، في المشرق والمغرب العربيين . ولا يغفل ما كان من ذلك في جنوب فارس ، وفي خراسان وما وراء النهر وفي السند وأفغانستان .

وفي تضاعيف هذا الكلام ، من اخبار العلماء والأدباء والشعراء ومن الشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاجتماعي والسياسي ، ما يجب اليك متابعة هذا الكتاب والانكباب عليه ، حتى تبلغ منتهاه .

ويختتم المؤلف كتابه بلمحة عن سير العلم في الأقطار الاسلامية التي فتحها العرب ، وما كان لذلك من فضل في بقاء الوحدة العلمية والفكرية ، بعد فقدان الوحدة السياسية فيقول :

« واذا فتحت بلدة فسرعان ما يذهب اليها العلماء في الفقه والأدب يعلمون أهلها الدين واللغة والأدب ، حتى تصبح بعد قليل مركزاً من مراكز الانتاج العلمي كالذي رأيناه في صقلية ، تُفتتح فيرحل اليها العلماء وتدوّي فيها حركة العلم وبعد قليل نراها مركز انتاج علمي وأدبي عجيب .

والحكومات من جانبها تنشئ الطرق ، وتقيم الرباطات والخافر لحاجتها الشديدة الى تنظيم البريد ، وتسهيل التجارة ، فكان العلماء في رحلاتهم ينتفعون بهذه المزايا ، كما ينتهزون الفرص لخروج القوافل الى الحج ، فينتظمون في سلك الحجاج ، ويرحلون الى البلدان التي يريدونها .

وكانت الرباطات كثيرة في مراحل المسافرين ، ويذكر الاصطخري انه كان في بلاد ما وراء النهر ما يزيد على عشرة آلاف رباط ، في كثير منها اذا نزل النازل قدم له طعامه ، وعلف دابته ان احتاج لذلك .

وقد زوّدت هذه الرباطات بالماء لحاجة المسافر اليه ، وعدت اقامة الرباطات وتزويدها من الأعمال الخيرية التي يقف عليها المسلمون بعض أوقافهم ... كل هذا جعل المملكة الاسلامية من مشرقها الى مغربها كأنها وحدة مهما تعدد ملوكها وحكوماتها ، فالعالم والأديب والفنان والتاجر لا يعبئون بالحدود التي ترسمها السياسة ، ويرون ان اللغة والدين تكسر حواجز السياسة .

وكان لهذا أثره الكبير في العلم والأدب ، ومن أوضح هذه الآثار ضعف الشخصية الاقليمية ، فليس علم مصر وأدبها متميزاً كثيراً عن علم العراق وأدبه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا عن علم خراسان وما وراء النهر والسند وادبها ، كلها متقاربة لأن رحلة العلماء وشدة الاتصال قربت بين الفروق ، وما يظهر امتياز في ناحية الا استمدته الناحية الأخرى وحذقته واستغلته . فالفقه المالكي في المدينة ، والفقه الحنفي في العراق يؤلف بينهما أمثال محمد بن ادريس الشافعي ، واسد بن الفرات المالكي . والنحو العراقي يحمله الى مصر والى المغرب الراحلون الى العراق (لعله من العراق ؟) والمتعلمون على أساتذته ، والعائدون بعد ذلك منه . والشعراء على ابواب الملوك والأمراء يتنقلون من بلاط الى بلاط فيوحدون مناهج النظم . والوراقون وتجار الكتب يحملون كتاب الأغاني ورسائل اخوان الصفا من العراق الى الأندلس . ومكاتب مصر ، ومكاتب الأندلس ، والقيروان ، والمهدية ، وفاس ، وخراسان ، وغزنة ؛ تضم خزائنها أهم ما أنتجه العالم الاسلامي بقطع النظر عن اقليمه

بل العلماء انفسهم نرى شطراً من عمرهم قضوه في بلد وشطراً آخر في بلد آخر . شطر في مصر وشطر في الشام ، وشطر في الشام وشطر في العراق ، وشطر في العراق وشطر في فارس ، وهكذا حتى يصعب في كثير من الأحيان عد العالم مصرياً او شامياً ، وعراقياً ام فارسياً . ومؤلفو التراجم أدركوا هذا المعنى فجمع اكثرهم علماء العالم الاسلامي على اعتبار انهم نتاج مملكة واحدة كقطر واحد .

نعم توجد شخصية نتاج كل اقليم كالأدب المصري والشامي والعراقي والفارسي ؛ والطب المصري والشامي والعراقي والفارسي وهكذا ، ولكنها شخصية غامضة خفية لا ترى الا بالمنظار الدقيق والبحث الطويل . واكثر ما يظهر هذا في منبع الظاهرة العلمية الأدبية حين تظهر . فظهورها في اقليم خاضع ولا بد لمؤثرات اجتماعية في هذا الاقليم ، كظهور المقامات في اقليم فارس ، والموشحات بالأندلس ؛ والأسلوب المسجوع المحلى بالبديع في الري وما حولها ، والرسائل الشاملة لفروع الفلسفة — كرسائل اخوان الصفا — في البصرة . كل ذلك له علل اجتماعية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتاريخية واقليمية مرتبطة بهذه الظواهر ارتباط السبب بالمسبب ، ولكن لا تلبث بعد ظهورها ان تقلد في سائر الأمصار ، ولو لم تكن العلة الأصلية موجودة ، وتقوم علة التقليد مقام علة الابتكار ، وتختفي الشخصية الأولى وراء المظهر العام للوحدة المشتركة »

من هذا الذي استشهدنا به ، يعرف شيء من قيمة هذا الكتاب الجليل الذي أخرجه للأمة العربية الأستاذ الجليل . وليس لنا ما نأخذه على أستاذنا الا تساهله في بعض عبارات وألفاظ ، ان هي جازت لغير المؤلف ، وفي غير هذا الكتاب ؛ فما نحسبها تجوز للمؤلف وفي كتابه هذا على جلالة قدرهما . من ذلك : (وهو كلام جيد نظرياً) و (استمرت طوال هذا العصر) و (تبلور عداء الناس) و (هكذا فعلوا في الوزراء والكبراء والتجار) وإكثاره من استعمال السنية في مقابلة الشيعة و (النعلين المذهّبين) بتشديد الهاء . و (صارت المملكة الاسلامية عبارة عن دول) و (اجاد المسعودي في ملاحظته وجه الشبه) و (لم تعد المملكة الاسلامية مخشية الجانب) و (فلما تملكوا حققوا نظريتهم في احقيتهم) و (اهاج شاعريته) و (لا يهمه المال بجانب ما يهمه العلم) و (بقطع النظر عن اقليمه) و (مات حول سنة ٤٣٠) و (فرأيت شعراء ممتازين في هذا العصر) و (يرجع الفضل فيها أولاً الى شخصيتين من أقوى الشخصيات)

وكالتساهل في كتابة الهمزة : (ملئوا) بدلاً من (ملأوا) (ولا يعبئون) بدلاً من (ولا يعبأون) .

ووقف نظرنا عند هذا البيت :

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما لأجل العطايا والّلها تفتح اللّها

و (لأجل العطايا) نابية هنا قلقة . لا تليق بقدر هذا البيت ولعل الرواية :

(تجيد العطايا واللُّهى تفتح اللَّها)

ولسنا من رأيه في قوله : « المأمون — نصف الفارسي » فاذا كان المأمون تخرجه عن عروبته أو تسلبه نصفها ، أن امه فارسية ؛ فما القول في كثير من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ملوك أوربه كانوا ، ومنهم من لا يزالون الى اليوم ، ينتسبون الى أمم ويقومون بأمورها ، وآباؤهم — وأحياناً هم — ليسوا منها بل غرباء عنها ؟

ويقول المؤلف : (وقد استفدت من اشارات للأستاذ متز الى كثير من هذه المصادر) وقد يكون هذا قليلاً في جانب ما سبق لآدم متز ان أورده في كتابه : (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع) من نصوص وشواهد وبحوث وأشعار ونقول وحادثات أعيدت نشرها وبنصها مرة ثانية في ظهر الاسلام .

هذا ونحن نكرر شكرنا للأستاذ الجليل على هذا الكتاب المفيد الجليل .

عارف النكدي